النَّصُّ الثّاني: اَلْمُقايَسَةُ الْعِلْمِيَّةُ بَيْنَ الرَازِي وجالينوس

("اَلْعُرْوَةُ الْوُثْقَى" مَجَلَّةٌ شَهْرِيَّةٌ إِسْلاَمِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ؛ أَسَّسَهَا الإِمَامَانِ جَمَالُ الدِّينِ اَلأَفْغَانِي – وَمُحَمَّد عَبْدُه 1301هـ1884 م اَلْعَدَدُ 36، الْمُحَرَّمُ 1403هـ أُكْتُوبَرْ 1982م الْقَاهِرَةُ – مِصْرُ.)

المؤلف في سطور:

(الشَّكْعَةُ، مُصْطَفَى محمد، وُلد الدكتور مصطفى محمد الشكعة، في محافظة الغربية في أغسطس 1917، ونشأ في قرية بقرب من طنطا بمحافظة الغربية، ثم انتقل إلَى القاهرة. دراسته وحياته الأكاديمية: حصل على درجة الليسانس في الآداب من جامعة القاهرة سنة 1944. ثم الماجستير في الآداب سنة 1951. فالدكتوراه في الآداب عام 1954 من نفس الجامعة. وعمل مدرسًا بكلية آداب جامعة عين شمس، ثم شغل منصب العميد بنفس الكلية، وانتدب للعمل مستشاراً ثقافياً بواشنطن بين عامي 1960 و1965، وبعدها أعير للتدريس بجامعة بيروت العربية، ثم جامعة أم درمان. كما شغل منصب عميد كلية بجامعة الإمارات. توفي مساء يوم الأربعاء 20 أبريل 2011.)

أَسْئِلَةٌ تَمْهِيدِيَّةٌ:

- هَلْ تَعْرِفُ أَنَ آفاقَ الْمَعْرِفَةِ قَدْ رَحُبَتْ إِبانَ نَشاطِ الْعَقْلِ الإِسْلامِيِ؟
- من أَشْهَرَ أَطِبّاءِ الإِسْلامِ؟
- هَلْ كُنْتَ تَعْلَمُ إِنَّ الأَطِبّاءَ الْمُسْلِمِينَ النَّابِهِينَ يُعَدُّونَ بِالمِئاتِ غَيْرَ الْعُلَماءِ الْمَذْكُورِينَ أَعْلاه؟
- هَلْ تعلم أَنَّ أَئِمَّةِ صِنّاعَةِ الطِّبِ عِنْدَ الْيُونانِيِّينَ مِثْلِ أَبُقْرَاطُ (Hippocrates) وجالينوس وَقَعوا في أَخْطَاءَ كَبِيرَةٍ؟

اَلنَّصُّ:

1. **بَيْنَ الرازِي وجالينوس:** من الحقائق المسلم بها أن آفاق المعرفة قد رحبت إبان نشاط العقل الإسلامي، وأن جذور الثقافة قد ضربت في أعماق الأرض بقدرٍ سُمِحَ لها بالثبات والأصالة، وأن ضروب العلم على اختلاف موضوعاتها ومقاصدها قد نمت وازدهرت وملأت سماء دنيا الوسيطة، فلم يكن آنذاك علم إلا علوم المسلمين؛ دينيةً كانتْ أو دُنيَوِيَّةً، ولم يكن هناك علماءُ على وجه الأرضِ إلا عُلَمَاءَ المسلمين.
2. ونحن في هذا الحديث نتناول على الطب الإسلامي ونتناول التعريف بالأطباء المسلمين وإنجازاتهم العلمية وإضافاتهم الأصيلة إلى ذلك العلم العتيد الذي نشأ في فجر الزمان الحضاري ونال كثيراً من العناية على أيدي الإغريق بشكلٍ خاصٍّ، وعلى أيدي أبقراط (Hippocrates) وجالينوس (Galen) الطبيبين اليونانيين بشكل أكثر خُصُوصِيَّةً، ولكنَّ دائرة

العلوم الطبية عند المسلمين قد صادفت اتساعاً لم يصلْ إليه أطباءُ اليونان. وكان من الأطباء المسلمين مَنْ أُوتِيَ بسطةً في العِلْمِ وعُمْقاً فِي الاستِقصاءِ ودقة في التجربة وصبراً في المتابعة بحيث أظهرَ بعضَ الأَخطاءِ التي وقع فيما كُلٌّ مِنْ أبقراط وجالينوس، كما أنَّهم حقَّقُوا إضافاتٍ في مَجالِ التشخيصِ الطبي والعِلاجِ الإكلينيكي (Alxlniki) وفي مقدمة (على رأس) هؤلاء الأطباء المسلمين الذين خلَّدَتْ أَسماؤُهُمْ وأعمالُهم: الرَّازي، وتلميذُهُ عَلِيٌّ بنُ العبَّاسِ، وابنُ سينان والزهراوي وابنُ النَّفِيسِ وابنُ زُهْرٍ.

3. وإذا كان أشهر الأطباءِ الإسلام... فيما يذهب مؤرخو الطبِّ هم: أبو بكر الرازي وابن سينا والزهراوي، فإنَّ الحقيقةَ الثابتةَ: إنَّ الأطباء المسلمين النابهين يُعَدُّونَ بِالمِئَاتِ، انتشروا على مَساحة البِلادِ الإسلامية وعلى مَسيرةِ زَمَنِيَّةٍ تُقَارِبُ ستةَ قُرُونٍ. وعلى الرغم مِنْ أنَّ الطب بفروعه الكثيرة بدأ ناضجاً عند الأطباء المسلمين، فإنَّهُ مع ذلك قد خضع لسُنَّةِ التَّطَوُّرِ، واتخذ مَراحلَ واضِحةَ الْمَعَالِمِ، نَهَضَ بها الأطباء المسلمون طَبَقَةً بعدَ طبقةٍ وجِيلاً بعدَ جِيلٍ، فكلَّما أَنجزتْ طبقةٌ نتائجَ جَديدةً أو تَوصَّلَتْ إلى حقائقَ علميةٍ مستحدثَةٍ جاءت الطبقةُ التاليةُ لكي تتخذَ مِنْ إنجازات الطبقةِ السابقةِ أساساً تبني عليهِ، وقاعدةً تنطلق منها إلى آفاقٍ جديدةٍ، ولعل هذا التطورَ أكثرُ ما يكون وضوحاً بين طبِّ الرازي وبين سابقه حُنين بنِ إسحاقَ مِنْ جِهَةٍ، وبين تلميذه عليِّ بنِ العَباس صاحبِ كتابِ "كاملُ الصِّنَاعَةِ" مِن جهةٍ أُخرى. وهو أول كتابٍ لطبيبٍ مسلمٍ تُرجِمَ إلى اللغة اللاتينيةِ. وكذالك يتضح هذا التطورُ بين طب ابن سينا وطبِّ أبي بكر الرازي، على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كِلَيهِما إمامٌ في علمه وحُجَّةٌ في طبه وقِمَّةٌ في تَأْليفهِ وتَجارُبِهِ.

4. وإذا كُنَّا قد قرّرنا أنَّ الأطباءَ المسلمين قد كشفوا عن أخطاءَ كبيرةٍ وَقَعُوا عليها عند أئمةِ صُنّاَعَةِ الطبِ عند اليونانيين مثلِ أبُقراط (Hippocrates) وجالينوس (Galen) ثم قاموا بتصويبها فإنه ينبغي الإشارةُ إلى أنَّهُ لم يكن من أهداف الأطباء المسلمين تَخْطِئَةُ الأطباء القدامى فيما قالوهُ أو الحَطُّ مِنْ قَدْرِ ما توصلوا إليهِ. فذلك أمرٌ لم يكن وارداً في تفكيرهم أو منهجهم، لأنهم كانوا من التحضُّرِ والارتقاءِ بحيث يؤمنون أن العلم تُراثٌ للإنسانية جمعاءَ وليس مِلكاً لأمَّةٍ دون أُخْرَى، أو حكراً لجنسٍ دون غيرِهِ، وإنما تَتَواكَبُ عُصاراتُ (لُبُّ) العُقولِ، وتتعاقَبُ حصائل التجارُبِ وتَتَلاقَى ثمارُ الجهودِ في نِطاقِ المعرفة الإنسانيةِ الشاملةِ، ومن ذلك كله يتكون النتاجُ العلميُّ الباهرُ.

5. وفي هذا المضمار أيضاً أخضعوا علمَ أبُقراط (Hippocrates) وجالينوس (Galen) لخبراتهم العميقة وتجاربهم الدقيقة، فنبَّهوا إلى الصواب وأبقَوْا عليه واكتشفوا الخطأ فَنَبَذُوهُ ومن ثَمَّ رفضوهُ. وليس ثَمَّةَ شك في أَنَّ منجزات الرازي وابن سينا: الأول في الطب الإكلينيكي،

والثاني في تنسيق علم الطب أكثر كثيراً مما فعل الأطباء اليونان وبخاصة ما فعله هِيرَفِيلِيسْ (Herviles) بطب أبُقراط. (Hippocrates).

6. إن أبا بكر الرازي على سبيل المثال، لا الحصرَ يُخَطِّئُ جالينوس (Galen) في ثقةٍ تصل إلى حد العُنْفِ في قوله: بأن ماء الاستسقاء يصل إلى الرِّئَةِ فيزيد السعالَ، إن الرازي لا يكتفي هنا بكشف الخطأِ، ولكن لإحساسه بأن هذا الخطأ ليس له مِنْ مُبَرِّراتٍ واضحة تجعل جالينوس بكل ثقله العلمي يقع فيه، فإن الرازي يصف هذا الرأي بأنه قولٌ سَمِجٌ.

7. وفي موضع آخر يُخَطِّئُ الرازيُّ جالينوسَ (Galen) في الرأي الذي ذهب إليه مِنْ أَنَّ ذُبُولَ الجسمِ يَزيدُ رَواسبَ البَوْلِ. ويُعلِّقُ الرازي على ذلك قائلاً: والذي عندي أن ذلك خطأٌ لا يجوز أبداً. ويُعَلِلُ الرازي وِجْهَةَ نظرِهِ (قائلاً): بأن القلبَ أرْطَبُ من العُروق والعظم، فإذا بلغت الحرارة إلى أَنْ تهدمها فهي أَنْ تُذِيبَ جُرمَ القلبِ أَولى. والحديث حول تفوق الأطباء المسلمين على أسلافهم اليونان حديث طويلٌ مُتَشَعِّبٌ، وهو موضوع للتسليم غَيرُ قابلٍ للجدلِ. ذلك أَنَّ أكثر ما ألف الأطباء المسلمون مِنْ كتبٍ لا يَزالُ بين أيدينا لِحسن الطالع، وقد أحيا هذَا التُّراثَ النفيسَ عَدَدٌ مِنْ فُضَلاءِ الأطباءِ المعاصرين من أمثال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين، والدكتور محمد عبد الحليم العقبي والدكتور بول (Paul) غليونجي وغيرهم، كما اهتم بعلم الطب عند المسلمين أيضاً عددٌ غَيْرُ قليلٍ من علماء الغرب ومستشرقيه مثلِ المستشرق فرديناند وإيستنقلد (Ferdinand, Istnqld) الذي أصدر سنة 1840م كتابه النفيس "تاريخُ أطباءِ العربِ" تحدث فيه عن حياة ثلاثمائة طبيب مسلم؛ ذكر فهارس مؤلفاتهم.

8. ومن أشهر المستشرقين المعاصرين الذين اهتموا بعلم الطب عند المسلمين: العالم الألماني ماكس مايرهوف (Max Meyerhof) الذي تخصص في طب العيون وأحبَّ مصرَ حباً كثيراً، واتخذ منها دار إقامة في حياته، ومُسْتَقَرّاً لِرُفَاتِهِ بعد مَمَاتِهِ سنة 1940م. فقد نقل إلى اللغات الأوروبية الحديثة وبخاصة الإنجليزية عدداً كبيراً من كتب الأطباء العرب والمسلمين، مثل ابن النفيس وابن رضوان ومعاصره ابن بطلان، ثم ختم (أنهى) كتابه "تُرَاثُ الإسلامِ" بهذه الكلمات العذب والتي تجمع بين لغة الشعر وَرِقَّتِهِ وحديثِ العلم ودقته: "إنَّ الطبَ الإسلامي قد عكسَ ضوءَ الشمس الغاربة في اليونان، وتلألأ كالقمر في سماء العصور المظلمةِ، وثَمَّةَ نجومٌ سَطَعَتْ من تِلقاء نفسها وأضاء سناها ظلمة هذه السماءِ، ثم أَفَلَ القمرُ وخَبا ضوءِ النجومِ في فجر عهدٍ جديدٍ، لكنَّ أثرَها بقي في الحضارة حيّاً حتى الآنَ."

9. ومنهم أيضاً المستشرق جوستان فليوجل (Austin Vlaocal) الذي عنى بتحقيق الكتب التاريخية الطبية عند المسلمين وتُوُفِّيَ سَنَةَ 1870م ولم يُكْمِلْهَا فقام على إِثْرِهِ

المستشرقان يوحنّا رُوَيدِيجَرْ (John Rüdiger) وأُوجَسْتْ مِيُولَرْ (Auguste Mueller) وأشرفا على تنظيم مخلَّفاته وأصدرا كتاب "فهرستُ الكتبِ الأوروبية المترجمة عن العربية" في ليبزج (Leipzig). ومن الحقائق التاريخية في هذا السبيل أنَّ البابا (Papa) كليمنت الخامس، قد أصدر قراراً سنةَ 1309م يحتِمُ على طلاب الطب أن يُمْتَحَنُوا في كتابَيْ "القانون" لابن سينا، و"الحاوي" للرازي للحصول على إجازة الطب.

10. على أَنَّ أَوَّلَ مَنْ لَفَتَ النظرَ إلى أهمية الأطباء المسلمين هو "يوحنَّاءُ رايسكة" (Aouhina Resch) حين ألف سنة 1746 كتاباً جعل عنوانه "الطبُ العربيُ" ونبَّهَ فيه إلى ضرورة وضع فهارس لجميع المخطوطات التي أَلَّفَها الأطباء المسلمون، ثم طبعها بعد تحقيقها، ثم ترجمها إلى إحدى اللغاتِ الأوروبية حتى يسهل على علماء الغرب من غير المستشرقين الإطلاعُ عليها والإفادةُ منها.

11. والحق أنه لم يكن في العالم الْمُتَحَضِّرِ في الفترة بين القرن الثاني إلى القرن التاسع الهجري (يعني الفترة بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلاديين) عَلَمٌ طِبِّيٌّ يمكن أن يُعْتَمَدَ عَلَيهِ أو يوثق به إلا ما كان من هذا العلم عند المسلمين، وما شَكَّ باحثٌ في تاريخ العلوم لحظةً واحدةً في تفوق المسلمين على جميع شعوب الأرض في العصور الوسيطة؛ وامتلاكهم زمام الابتكار في الطب والصيدلة علماً وتنظيماً وتطبيقاً، هذا فضلاً عن علومٍ أخرى كثيرةٍ ليس هذا مقام الحديث عنها. فليس غريباً بعد ذلك أن تُزَيِّنَ كليةُ الطب الجديدةُ في باريسَ سطحَ مَبناها بتماثيلَ لكبار أطباء العالم ومن بينهم ثلاثةٌ من الأطباء المسلمين؛ هم: أبو بكرٍ الرازي، وأبو عَلي بن سينا، وابن زُهْرِ الحفيدُ. (بتَصَرُّفٍ مِنْ د.محمد الشكعة، مجلة العروة الوثقى، العدد 36، 1982 ص، 40-43)

المفردات:

مِنَ الْحَقَائِقِ الْمُسَلَّمِ بِهَا hakkı verilmesi gereken gerçeklerden birisi de

أَنَّ آفَاقَ الْمَعْرِفَةِ قَدْ رَحُبَتْ bilgi ufukları genişlemiştir

إِبَانَ نَشَاطِ الْعَقْلِ الإِسْلاَمِيِّ İslamî aklın faaliyeti esnasında

وَأَنَّ جُذورَ الثَّقَافَةِ şüphesiz ki! Kültürün kökleri

قَدْ ضَرَبَتْ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ yerin derinliklerine salmıştır.

بِقَدْرٍ سُمِحَ لَهَا بِالثَّبَاتِ الأصالة kendisine müsaade edilen kalıcılık ve özgünlük kadarı ile

ضُرُوب الْعِلمِ ilmin çeşitleri

عَلَى اخْتِلافِ موضوعاتها konularının çeşitliliğine rağmen

قَدْ نَمَتْ وَازْدَهَرَتْ büyümüş ve gelişmiştir